المبحث الثالث

شيوخ الحكيم وأساتذته

لاخفاء أن القارئ لمؤلفات الترمذى، يلاحظ أنه لم يتحدث عن شيوخ له، تعلم منهم، وأخذ عليهم، إلا من أشار إليه فى رسالته : «بدو شأن أبى عبد الله» من قوله :«كان بدو شأنى أن الله ـ تبارك اسمه ـ قيض لى شيخى رحمة الله عليه، من لدن بلغت من السن ثمانيا يحملنى على تعلم العلم ويعلمنى ويحثنى عليه ويدئب ذلك فى المنشط والمكره.. فجمع لى فى حداثتى علم الآثار وعلم الرأى»[1]..

وسواء كان هذا الشيخ والده أو غيره، فهو شيخ لاشك فى مشيخته، وقد تتلمذ عليه الحكيم وظل ملازمًا له، مستفيداً من علمه، حتى وصل الحكيم إلى الجمع بين علم الفقه، وعلم الحديث..

وحين تهيأ الترمذى للخروج لأداء فريضة الحج، وقف بالعراق طلبا للحديث، ولم يذكر لنا أسماء الشيوخ الذين التقى بهم فى بغداد، والبصرة، والكوفة، وأخذ عنهم، لكن كتب الرجال والطبقات ذكرت لنا بعض من أخذ عنهم. فالسبكى فى طبقاته يذكر : أنه درس الحديث على جماعة من خراسان والعراق، فذكر أباه، وقتيبة بن سعيد، وصالح بن عبد الله الترمذى، وصالح بن محمد الترمذى، وعلى بن حجر السعدى، ويعقوب الدورقى، وسفيان بن وكيع[2]..

---

(١) راجع الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» تحقيق الدكتور عثمان يحيى ص ١٤ ضمن كتاب ختم الأولياء.

(٢) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢، ص ٢٤٥.

وذكر الذهبى مايماثل ذلك عن شيوخه، وزاد : الحسن بن عمر بن شقيق، ويحيى ابن موسى، وعتبة بن عبد الله المروزى، وعباد بن يعقوب الرواجينى[١]..

وابن حجر العسقلانى فى كتابه «لسان الميزان» : يذكر من شيوخه ـ من غير ماورد عند السبكى والذهبى ـ أبى عبيد، وابن أبى السفر، وعلى بن خشرم، ومحمد ابن على الشقيقى[٢]..

ولايخفى على الباحث أن السبكى بعد أن ذكر أسماء الشيوخ التى أخذ عنها الحكيم الحديث فى خراسان والعراق قال: «وغيرهم» [٣].. والذهبى قال : «وطبقتهم»[٤].. وابن حجر قال : «وآخرين».. «وقد لقى الأئمة الكبار وأخذ عنهم وفى شيوخه كثرة»[٥]..

وهذا يعطينا أن الحكيم الترمذى قد تلقى الحديث على كثيرين من رجاله ومعرفة هؤلاء الرجال تحتاج إلى جهد بالغ، ومشقة فى البحث، نظرا لكثرة مؤلفات الترمذى المخطوطة.

يقول الدكتور الجيوشى : «ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذى وخاصة من المحدثين، فما علينا إلا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته، ونستعرض سلاسل الإسناد ونأخذ المحدث الأخير الذى تلقى عنه الحكيم مباشرة. وقد قمت بهذا فعلا مدفوعا بحب الاستطلاع، ومحاولة معرفة درجة شيوخ الحكيم من المحدثين، ومايتمتعون به من ثقة عند علماء الرجال، فكانت قائمة الأسماء هى نتيجة هذه السباحة الشاقة فى مؤلفات الترمذى وأغلبها مخطوطات تقارب الستين بين رسالة وكتاب، وأغلب شيوخه من المحدثين المقبولين لدى علماء الحديث» [٦]..

---

(١) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥.

(٢) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٣) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٤) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢، ص ٦٤٥.

(٥) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٦) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٩ ، ٥٢.

والبحث قد يكشف عن معرفة شيوخ آخرين للترمذى.. وإننا نجد أنه من المستحسن أن نذكر بعض الأسماء البارزة لشيوخه وأساتذته. ومن هؤلاء : على بن الحسن الترمذى والده، وقد أورد ذكره أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، فى كتابه «تاريخ بغداد» على أنه : على بن الحسن بن بشير ابن هارون الترمذى، وأنه حدث ببغداد عن شداد بن حكيم، وصالح بن عبد الله الترمذى، وأنه قد روى عنه محمد بن مخلد [١]..

ومن هؤلاء قتيبة بن سعيد الثقفى البلخى، وقد ورد ذكره فى «تاريخ بغداد»[٢] ويؤخذ منه أنه كان يطلب علم الرأى، ثم وجه إلى تحصيل الأثر، فبدأ بالرحلة منذ كان شابًا، ورحل إلى العراق، والمدينة، ومكة، والشام، ومصر، وسمع مالك بن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وبكر بن مضر، ويعقوب بن عبد الرحمن، وحماد بن زيد، وأبا عوانة، وإسماعيل بن جعفر، وعبد الواحد بن زياد، وسفيان بن عيينة.

وروى عنه أحمد بن حنبل وأبو خيثمة زهير بن حرب، وأبو بكر بن أبى شيبة، والحسن بن محمد بن صباح الزعفرانى، والحسن بن عرفة، ويوسف بن موسى، وأبو داود السجستانى، وجعفر بن محمد بن شاكر الصائغ، وإبراهيم الحربى، وموسى بن هارون، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، والبخارى ومسلم فى صحيحيهما، وَخَلْقٌ سوى هؤلاء. وكان حسن الخلق، واسع الرحل، غنيًا من ألوان الأموال، من الدواب، والأبل، والبقر، والغنم، وكان كثير الحديث، كما كان ثبتًا فيما يرويه، صاحب سنة وجماعة، ذكره أحمد بن حنبل فأثنى عليه، وسئل عنه يحيى بن معين فقال: ثقة، وقال عنه قتيبة بن سعيد البقلانى : ثقة مأمون. وقال عنه عبد الرحمن بن يوسف بن

---

(١) البغدادى «تاريخ بغداد» الجزء ١١،ص ٣٧٣،ط القاهرة، وراجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ٢، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق الجزء ١٢، ص ٢٦٤.

خراش: قتيبة بن سعيد صدوق.. ولد فى نحو خمسين ومائة للهجرة، وتوفى عن نحو تسعين عاما فى سنة أربعين ومائتين بقرية من «رستاق» بلخ تدعى بغلان كان قد أقام بها [١].

ومن هؤلاء الرجال : صالح بن عبدالله الترمذى، وقد جاء ذكره فى تاريخ بغداد وفى لسان الميزان [٢]، وقد سكن بغداد، وحدث بها عن مالك بن أنس، وحماد بن يحيى الأبح، وعبد الوارث بن سعيد، وعبثر بن القاسم، وشريك بن عبد الله، وجعفر ابن سليمان، وفرج بن فضالة، وعمر بن هارون البلخى وغيرهم، وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان وغيرهم.. قال أبو حاتم: هو صدوق. وقال ابن حبان فى تاريخ الثقات : صالح بن عبد الله الترمذى صاحب سنة وفضـــل[٣]..

ومن هؤلاء الحسن بن عمر بن شفيق البلخى، قال عنه صاحب «تاريخ بغداد»[٤]. أنه كان يتجر إلى بلخ، فعرف بالبلخى، قدم بغداد، وحدث بها عن أبيه وعن عبدالوارث بن سعيد، وجعفر بن سليمان، وغيرهم كما روى عنه عبد الله بن أحمد ابن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وموسى بن إسحاق الأنصارى، والحسن بن الطيب الشجاعى. وقال ابن أبى حاتم: سئل أبو زرعة عنه فقال: «لابأس به» وسئل أبى عنه فقال: «صدوق». وقال محمد بن إسماعيل البخارى: الحسن ـ يعنى عمر بن شقيق ـ «صدوق» كما قال على بن محمد الحبيبى ـ بمرو ـ سألت أبا على صالح بن محمد جزرة الحافظ عن الحسن بن عمر بن شقيق فقال: «شيخ صدوق». ويقال أنه مات سنة ثلاثين ومائتين[٥].

ومن هؤلاء : يعقوب بن شيبة بن الصلت، وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت بن

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٣٩.

(٢) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ١ ص ٣١٥ وابن حجر «لسان الميزان» جـ ٣ ص ١٧٦.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١،ص ٣٩.

(٤) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ٢، ص ١٧٣.

(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٠.

عصفور، أبو يوسف السدوسى، من أهل البصرة، ورد ذكره فى تذكرة الحفاظ وتاريخ بغداد[١]، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، وكان من ذوى السرو، كثير الرواية والتصنيف.. سمع على بن عاصم، وزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وعنان ابن مسلم، ويعلى بن عبيد، ومعلى بن منصور، ومحمد بن عبدالله الأنصارى، وأبا النصر هاشم بن القاسم، وأسود بن عامر، وأبا نعيم، وقبيصة بن عتبة، ويحيى بن أبى بكر، وكثيرا من أمثالهم، وكان ثقة، وصنف مسندا معللاً لم يتممه [٢].

ولو ذهبنا نستقصى شيوخه من رسائله، بهذه الكيفية لاتسع الأمر، ولوجدنا مصداق ماذكره ابن حجر فى لسان الميزان، نقلا عن ابن النجار فى ذيله على تاريخ بغداد: «من أن فى شيوخه كثرة» إلا أنه يكفى ماذكرناه منهم لمعرفة البحر الذى كان يستقى منه نشاطه العلمى.

على أنه لايفوتنا أن نذكر أن الترمذى ـ كما جاء فى رواية فريد الدين العطار وكتاب «الأدعية» ـ قد تعلم فى فترة من فترات حياته، على يد الخضر، وكان الخضر يأتيه ليعلمه كل يوم، حتى انقضت ثلاث سنوات على ذلك[٣].

فإذا أخذنا بروايات ماجاء فى تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، ومخطوط «الأدعية والطلسمات» مأخذ القبول، فلا مناص ـ كما يقول الدكتور الجيوشى ـ من عد الخضر شيخا للحكيم، بل يكون هو فقط شيخه فى مجال المعرفة الصوفية [٤].

ويقول العلماء: «اننا ـ هنا ـ أمام احتمالين: إما أن نرفض الرواية من أساسها،

---

(١) نقلا عن الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٧، وانظر البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ١٤، ص ٢٨١ وابن حجر «لسان الميزان» جـ ٢، ص ١٤١.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٣.

(٣) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» نيكلسون جـ ٢، ص ٩١ ـ ٩٢ نقلا من كتاب:«الحكيم الترمذى» للدكتور الجيوشى ص ١٧ـ ١٨ ومقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس» للمستشرق آربرى والدكتور على حسن ص٨، ومخطوط الأدعية.

(٤) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٨.

وحيثيات الرفض لاتعوزنا، ومن أقواها أنها لم تصح الإشارة إليها فى «بدو شأن أبى عبدالله» وحينئذ لايمكن أن نعتبر الخضر أحد أساتذة الحكيم الترمذى. وأما أن نقبلها على مسئولية رواتها، وحينئذ نعتبر الخضر واحدا من شيوخ الحكيم، وخاصة أنه لم يرد فيما نسب إلى الترمذى من قريب أو بعيد إشارة إلى أحد من شيوخه إلا والده، وما روى حول الخضر» [١].

والخضر ـ بكسر الخاء مع سكون الضاد، وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ـ لقب السعيد الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [٢].. ولقب بهذا لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله. وقيل لأنه جلس على الأرض فاخضرت تحته، وكنيته أبو العباس. واسمه «بليا» وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك. وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا [٣].

قال شيخ الإسلام فى شرحه على البخارى فى كتاب «العلم»: واختلف فى الخضر أهو نبى، أو رسول، أو ملك، أو ولى، والصحيح أنه نبى [٤]. والصوفية يرون أنه ولى [٥]..

ويرى البخارى، وابن المناوى، وأبو بكر بن العربى، وأبو يعلى بن الفراء، وابراهيم الحربى، وأبو طاهر العبادى، وآخرون: «أن الخضر غير موجود بجسده، وأنه مات» لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [٦].

ويرى ابن الصلاح والثعلبى، والنووى، والحافظ بن حجر، وجماهير الصوفية،

---

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية ٦٥.

(٣) الجمل «الفتوحات الألهية» جـ٣، ص ٣٥، ط الحلبى وشركاه.

(٤) الجمل «الفتوحات الآلهية» جـ ٣، ص ٣٥.

(٥) الشيخ محمد زكى ابراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ٧، ط العشيرة المحمدية ١٣٩٠هـ.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٣٤.

والعلماء، وأهل الصلاح، أنه حى بجسده، وموجود يرزق [١].

واننا نجد أن الإمام الألوسى فى كتابه «روح المعانى» فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى «يتناول موضوع الخضر بتوسع وإفاضة ثم يقول :«ثم اعلم بعد كل حساب أن الأخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته عليه السلام أى مساعدة وتعاضدهم على دعواهم أى معاضدة ولامقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية ـ والله تعالى أعلم بصحتها ـ عن بعض الصالحين الأخيار وحسن الظن ببعض السادة الصوفية فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لايقبل التأويل»[٢].

ثم يذكر الألوسى أن ابن عربى فى الفتوحات المكية الباب الثالث والسبعين يؤكد وجود الخضر عليه السلام حياً. ويعلق الألوسى بعد ذلك بقوله : «وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قول مرجوح عند جمهور العلماء والقول بحياته وبقائه إلى يوم القيامة»[٣].

وذكر الجمل فى الفتوحات الآلهية: أن الجمهور اتفق على أنه حى إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة[٤]..

فكثير من العلماء يرون: أن الخضر أما أن يكون حيا بجسده وروحه، وليس ذلك ببعيد (والنتيجة أنه موجود).

وأما أن يكون حيا بروحه فقط، وروحه بحكم خصوصيته منطلقة من عالم البرزخ، طوافة بعالم الدنيا، متجسدة فيه. وليس ذلك ببعيد أيضاً.. فالنتيجة أنه موجود.. أذن فعلى القول بالحياة أو الممات هو موجود .. والقول بلقائه أو رؤيته صدق محض، ومما يروى عنه على ألسنة أهل الله، حقيقة واقعة[٥].

---

(١) الشيخ محمد زكى إبراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ٩.

(٢) الألوسى «روح المعانى» جـ ٥، ص ٣٢٨، ط إدارة الطباعة المنيرية ـ بيروت لبنان.

(٣) روح المعانى جـ ٥، ص ٣٢٩.

(٤) الجمل «الفتوحات الآلهية» جـ٢، ص ٣٥.

(٥) الشيخ محمد زكى إبراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ١٠، ط مجلة المسلم عدد صفر ١٣٩٠ هـ القاهرة.

فلا غرابة أذن أن يكون الحكيم الترمذى التقى بالخضر، وتعلم منه، وأخذ عنه..يقول أبو بكر محمد بن عمر الوراق: عن أصحاب الحكيم الترمذى: أعطانى الحكيم الترمذى كراسة قائلاً: ألقها فى جيحون. فقال: فلم يطعنى قلبى، وأخفيتها فى منزلى، وجئته وقلت: ألقيتها. فقال: ماذا رأيت؟ قلت: لم أر شيئا. قال لم تلقها. عد وألقها فى البحر. فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبى، وألقيتها فى الماء. فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح، فلما وقعت فيه. أغلق الغطاء. فعدت ورويت له ماحدث. فقال: الآن ألقيتها. وقلت: أيها الشيخ ما سر هذا؟ حدثنى به. قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق، يعجز الفهم عن إدراكه، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله إليه[١].

وقد تردد فى كتب الطبقات أسماء ثلاثة من كبار شيوخ الصوفية، التقوا بالحكيم، وكانت له معهم صحبة، لقى أبو تراب النخشبى، وصحب يحيى بن الجلاء، وأحمد بن خضرويه [٢]. وأبو تراب النخشبى من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد، والورع. قال ابن الفرجى:«رأيت حول أبى تراب من أصحابه عشرين ومائة صاحب ركوة، قعودا حول الأساطين، مامات منهم على الفقر إلا أبو عبيد البسرى وابن الجلاء» .. وقال ابن الجلاء: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشبى»[٣].. ذكره السلمى والسبكى والشعرانى فى كتبهم عن الطبقات. ويقول عنه السبكى أنه كان شيخ عصره لا مدافعة، جمع بين العلم والدين، زاهدا ورعا متوكلا متبتلا[٤].. ويحيى بن الجلاء كان من جلة مشايخ الشام، وكان عالما ورعا. ويقول إسماعيل بن نجيد: «كان يقال

---

(١) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ ١،ص ٣٥٤.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٧.

(٣) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٤، ط كتاب الشعب. وطبقات الصوفية تحقيق شريبة ص ١٤٦، ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(٤) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٤، وطبقات الشافعية جـ ٢، ص ٣٠٦، والطبقات الكبرى ص ٧١.

أن فى الدينا ثلاثة من أئمة الصوفية لارابع لهم : الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام»[١].

وأحمد بن خضرويه ذكره أبو نعيم فى الحلية وأبو عبدالرحمن السلمى فى طبقاته، وقد جاء عنه أنه من كبار مشايخ خراسان، ومن مذكورى مشايخها بالفتوة. قيل لأبى حفص:من أجل من رأيت من هذه الطبقة؟ قال: مارأيت أحدا أكبر همة، ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه[٢].

هؤلاء كان للحكيم مع بعضهم صحبة، ومع بعضهم الآخر لقاء. وهذا لايعنى أنه كانت هناك تلمذة من الحكيم عليهم، وإنما هو لقاء الأقران والنظراء، ولو كان هناك شئ من هذا لأخبرنا الحكيم عنه فى مجال عرضه لنا أطوار تقدمه الروحى، وبحثه عمن يرشده طريقه[٣].

ولايغيب عن الباحث أن الحكيم قد تتلمذ على كتاب «الأنطاكى» وقد وقع الكتاب فى يده، فاهتدى عن طريقه إلى شئ من رياضة النفس. ويقول الحكيم فى ذلك : «وقع إلى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه فاهتديت لشئ من رياضة النفس، فأخذت فيها»[٤].

هذا الكتاب الذى يذكره الحكيم، ويعزوه إلى الأنطاكى هو فى الحقيقة الشيخ الذى كان له أكبر الأثر فى حياة الحكيم الترمذى. فمن هو هذا الأنطاكى الذى يقصده الحكيم؟[٥].

---

(١) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٤١، ط الشعب وص ١٧٦، بتحقيق نور الدين شريبة.
(٢) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٢٥، ط الشعب.
(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٧، ط دار النهضة المصرية.
(٤) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص ١٥، ضمن كتاب ختم الأولياء.
(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» ص ١٨٧.

تذكر كتب التراجم بهذا اللقب ثلاثة من شيوخ الصوفية :

* أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى، من أقران بشر بن الحارث، والسرى، والحارث المحاسبى، ويقال أنه رأى الفضل بن عياض، ومن أصحاب أبى العباس بن عطاء، والحريرى. من أهل بغداد، رحل إلى الشام ثم عاد، توفى سنة ٣٦٧هـ[١].

* وأبو محمد عبدالله بن خبيق بن سابق الأنطاكى، صحب يوسف بن أسباط وهو من الزهاد الأكياس فى أكل الحلال، والورعين فى جميع الأحوال، أصله من الكوفة، ولكنه من الناقلة إلى أنطاكية[٢]، وطريقته فى التصوف طريقة النووى فإنه صحب أصحابه[٣].

* وأبو محمد عبدالله بن محمد، بغدادى المولد والمنشأ، صحب الجنيد وغيره، وكان فقيها على مذهب مالك، مات سنة ٣٣٤ هـ[٤].

قال الكلاباذى فى كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف» : «فيمن صنف فى المعاملات: أبو محمد عبدالله بن محمد، وأبو عبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكيان، وعبدالله بن خبيق الأنطاكى»[٥]. فياترى: أى أنطاكى من هؤلاء وقع كتابه فى يد الحكيم؟ ويقول الدكتور بركة: أنه بمقارنة النصوص التى أوردتها الكتب، وجدنا أنها تكاد تنطبق فى كثير من أوجه الشبه والمطابقة مع ماورد فى كتب الحكيم ـ أنه هو

---

(١) الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٤٥ الطبعة الثانية، وانظر الشعرانى فى كتابه الطبقات الكبرى جـ ١، ص ٧١، ط صبيح. والسلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٣.

(٢) أنطاكية بتخفيف الياء قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهى من أعيان البلاد وأمهاتها. وكل شئ عند العرب من قبل الشام فهو «أنطاكى» .. فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح، واستمرت فى يد المسلمين إلى أن سقطت فى أيدى الروم سنة ٣٥٣ هجرية. ثم استردت سنة ٤٧٧ هـ «راجع معجم البلدان» جـ ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩.

(٣) السلمى «طبقات الصوفية» تحقيق نورالدين شريبة ص ١٤١، ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(٤ـ٥) أبو بكر محمد الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٤٥، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

الأنطاكى المقصود، يقول القشيرى أن أبا سليمان الدارانى كان يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته[١].

وسواء كان هذا الأنطاكى أو ذاك، فإن الحكيم قد اهتدى بعد النظر فى كتابه لشئ من رياضة النفس، فأخذ فيها، وأعانه الله عليها[٢]..

واذا أردنا أن نعزو الحكيم إلى أحد المدارس العلمية ـ كما يحلو لبعض الباحثين ـ فقد صحب أبا تراب النخشبى، وأحمد بن خضرويه، وهما من جلة وأكابر مشايخ خراسان وصحب يحيى بن الجلاء البغدادى، وتتلمذ على كتاب «الأنطاكى» وهو من شيوخ مدرسة الشام ذات الصلة الوثيقة بمدرسة مصر. وكان على صلة وثيقة بمدرسة نيسابور الملامتية[٣] حيث كان أحد من ينتمون إلى هذه المدرسة تلميذا له وهو أبو على الحسن بن على الجوزجانى[٤] ولعل البحوث والدراسات الإسلامية تكشف عن شيوخ اتصل بهم الحكيم الترمذى.

وإذا كنا قد عرفنا: أن البحث العلمى، لايرى مانعا من أن يكون الحكيم الترمذى قد التقى بالخضر، وأخذ عنه ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ فإن الباحث يرى أن قصة التقاء الحكيم بالخضر ـ التى ذكرها فريد الدين العطار فى كتابه «تذكرة الأولياء» ـ كانت بدايتها قبل رحلة الحكيم إلى العراق والحج. التى بدأها حين بلغت سنة سبعا وعشرين عاما.

وليس هناك مايمنع من أن يكون الحكيم التقى بالخضر بعد ذلك.. ولكن الذى يهمنا معرفته. أن الحكيم ذكر فى كتابه :«بدو شأن أبى عبدالله» : أنه بعد أن رجع إلى الوطن ـ بعد رحلة طلب العلم، وأداء فريضة الحج ـ أخذ يتتبع محامد الرب،

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٨. والرسالة القشيرية ص ١٩.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ١٨٨.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١ص ٤٤ ط الأزهر.

(٤) أبو العلا عفيفى «الملامتية والصوفية وأهل الفتوة» ص ١٠٨، ط القاهرة ١٩٤٥م.

ويلتقط محاسن الكلام، ويسترشد فى البلاد عمن يرشده الطريق، أو يعظه بشئ. فلم يجد الشيخ الذى يطمئن إليه[1].

وهذا يعطينا دليلا على أن الحكيم كان يؤمن بقاعدة: «أخذ العلم والعمل عن المشايخ». وأن ضبط النفس بأصل يرجع إليه فى العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث[2].

ولكن ماذا يفعل السالك الذى يطلب الطريق إذا لم يجد الشيخ الذى يأخذ عنه العلم والعمل؟ وماذا يفعل السالك إذا لم يجد الشيخ الذى يستريح له؟

أيقف جامدا لايتحرك ويقطع ما اتصل به من العلم والعمل؟ أم ينظر فيما تركه مشايخ العلم والمعرفة، من معالم تهدى إلى الطريق، وتأخذ بيد السالك؟

إن الباحث بعمق يجد أن الصوفية الأولين يرون أن هناك طريقان للسالكين. ذكرهما ابن عجيبة فى كتابه «الفتوحات الآلهية» فقال :«هل يكتفى بمشاهدة الرسوم ومطالعة الكتب فى طريق الصوفية ـ أهل التوجيد الذوقى والمعرفة الحقيقية الوجدانية ـ أم لابد من الشيخ؟.. »

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:

أولها : النظر للمشايخ، فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق، يعرف موارد العلم، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح.

الثانى: النظر لحال الطالب، فالبليد لابد من شيخ يربيه، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه ..

الثالث: النظر للمجاهدات، فمجاهدة التقوى لاتحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة تحتاج للشيخ، فى بيان الأصلح منها: وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف.. وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها.

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٥، فقرة٢.

(٢) زروق «قواعد التصوف» ص ٣٩، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

يقول ابن عجيبة بعد أن أورد الأجوبة الثلاثة: «قلت: وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب»[1].. وقد ذكر ذلك أيضا الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن زروق فى كتابه: «قواعد التصوف» حيث بيّن فى القاعدة رقم ٦٦ قول القائلين بالاكتفاء بالكتب عن المشايخ[2].

ويبدو أن الحكيم الترمذى كان قد قطع شوطاً كبيراً لتحقيق الصفاء النفسى، والسمو الروحى، واكتساب المعرفة التى تقرب السالك من الله سبحانه وتعالى، وتفتح الطريق أمامه للترقى فى منازل القرب التى لايدنو منها إلا من تسلح بصفاء النفس، ونقاء القلب، واستقامة السلوك وشفافية الروح.

لهذا حين لم يجد من يرشده الطريق التزم بالعبادات حتى وقع فى مسامعه كلام أهل المعرفة، ووقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه، فاهتدى لشئ من رياضة النفس[3].

وقد يبدو للبعض بعد معرفة هذا عن الحكيم الترمذى أن يقول: أن الحكيم لم يكن يرى مايراه كثير من شيوخ الصوفية من ضرورة حاجة السالك إلى شيخ يأخذ بيده، ويدله على الطريق.. وإنما كان يرى أن التقديم الروحى للسالك يتوقف على مجاهداته، وصدق رياضته، ودأبه المستمر.

وقد ذكر بعض الباحثين: أن هذا الاتجاه عند الحكيم يوكده ويزيده وضوحا ماكتبه الحكيم ردا على رسالة جاءته من الرى. ناقش الحكيم فى رده «جواب كتاب من الرى» قضية من القضايا الهامة التى شغلت فكر الصوفية، ولهم فيها موقف يكادون يجمعون عليه ماعدا الحكيم ـ وبعض شيوخ التصوف ـ تلك القضية هى «كيفية الوصول إلى الله» وهل يحتاج السائر إلى الله أن يستعين بشيخ يأخذ بيده،

---

(١) ابن عجيبة «الفتوحات الآلهية» ص ٨٩، ط عالم الفكر.

(٢) ابن محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٤٠.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٥.

ويدله على الطريق؟ يكاد شيوخ الصوفية يؤكدون على حاجة السالك إلى شيخ يؤدبه ويعلمه ويبصره بمراحل الطريق، يأخذ بيده إذا عثر، ويشجعه إذا تراخى.. إلا أن الحكيم الترمذى لايتابع الشيوخ على هذا الرأى، ولايتفق معهم ـ على ضرورة هذا المنهج ـ وقد بدا رأيه واضحا من رده على صاحب الرسالة[١].

وصاحب الرسالة يشكو للحكيم حاله، ويخبره أنه وصل إلى مقام لايقوم فيه بعمل إلا بعد أن يرد عليه وارد إلهى يأذن له بالعمل. ومقتضى ذلك أنه لايجوز له أن ينطلق إلى عمل بغير إذن. ومن المفهوم أن ذلك إنما يكون فى غير الفروض من الأعمال لأنها مطلوبة بمقتضى الأمر، فلا تحتاج إلى إذن جديد. أما أعمال التطوع فهى التى قامت المشكلة بشأنها.. ولكن هذا المريد أراد أن يتأكد فى حاله ومقامه، فصحب رجلا يرجو على يديه فتحا أكبر، فكانت النتيجة أن فقد ماكان فيه، ولم يجد فى شيخه الجديد تعويضا عنه[٢].. وهنا نجد الحكيم الترمذى يوجه اللوم إليه على مافعل. فما دام قد وصل إلى هذا المقام وجب عليه أن يلزمه، حتى يكون الله هو الذى يتولى تحويله عنه إلى مقام آخر.. أما أن يذهب إلى مخلوق مثله يلتمس منه المعونة على أمره، كأنه لم يرض بما أقامه الله فيه أو كان هذا المخلوق يملك له عند الله شيئا، فجزاؤه الحرمان.. فهذا المريد قد تعجل ومثل هذه الأحوال تحتاج إلى مدة حتى يستحكم أمره فيها [٣].

يقول الحكيم فى جوابه: «ووصفت أن شأنك ومبتدى أمرك أنك نلت منزلة لاتعمل شيئا إلا بإذن، ثم صحبت رجلا ممن ترجو الزيادة به، فتركت أمرك، وأقبلت عليه، فافتقدت الأمر الأول، وهكذا يكون شأن من يطلب الخالق بالمخلوق، الصادق فى الطريق يطلب ربه به لابشئ سواه، ومبتداه كما ابتديت به أن لاتعمل شيئاً إلا بأذنه

---

(١) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص ٤٦، تحقيق مجلة منبر الإسلام ع٨، س ٤٠ القاهرة.
(٢) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٠.
(٣) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨١.

إلا الفرض الذى قد لزم الخلق، فكان هذا منك انقيادا للعبودية وتسليما للنفس إليه، فكان سبيلك أن تدوم على هذا حتى تنظر بما يكون منه بعد هذا[1]. وبعد أن أجمل الحكيم له رأيه، أخذ يبين له الوسائل والطرق التى يرى أن الأخذ بها يوصل صاحبها إلى منزلة القرب من المولى عز وجل، يجمل هذا أولا فى قوله : «الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشئ سواه» ثم يأخذ فى تفصيل هذه الوسائل وهو يرى أن مفتاح الأمر فى التوبة الصادقة مما أحدث، ثم مجاهدة النفس ورياضتها، واقرارها بالاستكانة لله والخضوع له، والتبرى من الحول والطول، والإقامة على ذلك مدة حتى تخلص النفس من شوائبها، وتصفو من كدورتها، وهذا هو الجانب الداخلى الذى لا يطلع عليه أحد وهو الجانب المهم.

ثم يرى الحكيم أن ذلك يبدأ بأن يصاحبه جانب عملى ظاهر يكون أيضا بعيدا عن الرياء، ورؤية النفس، ويتحقق ذلك بأن يتطهر المريد، ثم يصلى ركعتين فى فضاء من الأرض بعيدا عن الناس والشهرة، ثم يلزم هذا حتى يفتح له الباب[2]..

وقد ذكر الدكتور بركة ـ بعد دراسة وتحقيق جواب الترمذى ـ «اننا نستطيع أن نلمح هنا أن الحكيم الترمذى لا يتفق مع رأى الكثيرين من أئمة التصوف فى ضرورة الشيخ للمريد، وتشديدهم فى ذلك إلى حد اعتبار الشيطان شيخ من لا شيخ له. بل نجد أنه هنا يفترض عقوبة الحرمان لمن اعتمد فى سلوكه على شيخ.

لكننا من جانب آخر نرى أن ذلك قد يكون بسبب أن هذا المريد لم يحسن اختيار الشيخ الماهر بالطريق.. أو لأن هذا المريد كان قد وصل إلى مقام معين لم يعد يحتاج فيه إلى مثل هذا الشيخ، وإنما يحتاج الصبر فى انتظار ما تخرج له به رحمة الله.. على كل نجد هذا النص يفتح الباب بغير شك لمريد يسلك بغير شيخ..[3].

---

(١) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» تحقيق ص ٤٨ منبر الإسلام عدد ٨، والدكتور بركة تحقيق ص ٢٩٤ مجلة كلية أصول الدين العدد الأول.

(٢) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص ٤٧، منبر الإسلام.

(٣) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٢.

ويرى الدكتور الجيوشى: أنه يحق لنا أن ندعى أن الحكيم لم يكن له شيخ معين يأخذ بيده ويسدد خطاه، وأنه انتفع بما كتبه الأنطاكى.

وقد آثر الحكيم أن يودع آراءه وأفكاره : كتبه ورسائله التى وصل إلينا منها عدد لا بأس به على الرغم من تباعد الزمن وامتداده.. وقد نقول أن الحكيم وضع أصول مدرسة تعتمد فى نقل أفكارها على ماتسجله فى الكتب والرسائل، وأن الأنطاكى كان هو الملهم الأول لطريقها فى كتابه : «دواء القلوب» وجاء الحكيم فعبد الطريق، وأوضح معالمه، وقدم له زاداً كافياً من كتبه ورسائله العديدة، أودع هذا الاتجاه فى المقربين من تلامذته، ومن أشهرهم اثنان حملا اللواء بعده، وسارا على أثره، هما : أبو بكر الوراق الذى كان يسمى معلم الأولياء، والحسن بن على الجوزجانى الذى كان يلقب بجاسوس القلوب.. وكلاهما أودع آراءه وأفكاره: كتبه ورسائله[1].

ومع كل هذا، فإن الباحث يجد البحث يقوده إلى القول : بأن الحكيم إذا كان ـ بعد عودته إلى الوطن ـ بحث عمن يسترشد به، فلم يتيسر له ذلك، حتى وقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه. ألا يجوز أن يكون بعد ذلك قد اتخذ له شيخا؟ وخاصة أنه يقر وجود الشيخ وملازمة السالك له، بدليل أنه بحث فى البلاد عنه..؟

وليس هناك مايمنع من أن يكون «جواب كتاب من الرى» الذى أعده الحكيم الترمذى ـ ردا على صاحب الرسالة الذى طلب النصح من الحكيم ـ قد جاء لأن صاحب الرسالة كان قد وصل عن طريق شيخ له إلى المقام الذى وصل إليه. ثم شاء أن يصحب رجلاً آخر يرجو الزيادة به، مما تحول الأمر معه إلى اعتقاد فى الشيخ الجديد. ولذلك تضمنت توجيهات الحكيم فى الجواب:« أن الصادق فى الطريق يطلب ربه به لابشئ سواه» وهذا من الحكيم لايتعارض مع ملازمة السالك للشيخ، لأن الشيخ يرجع إليه فيما يرد، أويراد[2].. وقد يساعد على هذا الاستنتاج المثل الذى

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص ١٥.

(٢) محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٣٩.

ضربه الحكيم لهذا المريد الذى صحب رجلاً آخر يرجو الزيادة به. قال: «هو بمنزلة عبد السبى، لايعرف أمر مولاه، وقد ألقى بيده سلما، ينتظر ما يأمره مولاه، فهو ينتهى إليه، حتى إذا أتت عليه المدة بقدر مايعرف أخلاق السيد وقصده ومراده، وضرر أمره ونفعه، وصلح للتفويض إليه أعطاه رأس ماله، وفرض إليه أموره، فهو يأخذ ويعطى فى ماله، ويضع ويرفع ويسوس عبيده الذين هم دونه، ويشرف على أمور سيده، فلا يحتاج إلى إذن فى كل كلام، لأنه قد عرف أمر مولاه، واستبطنه، فصلح لتدبير أمره وسياسة عبيده، فإذا ذهب هذا العبد، وهو سبى بعد، فوضع يده فى يد سبى مثله لم يبلغ هذا المحل، ولم يصلح لتدبيره وسياسته، وهو مثله ضعيف، فقد ترك طريقه وضيع أمره»[١].

وقد تظهر تفسيرات أخرى للنص الوارد فى «جواب كتاب من الرى» إذا توفرت المعلومات الوافية المحيطة بهذه المراسلات ، واتضحت المعالم حولها، وخاصة أن بعض مؤلفات الحكيم المخطوطة لم يكشف عنها النقاب بعد. وقد ذكر الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب» أن للحكيم الترمذى كتابا بعنوان: «تاريخ المشايخ»[٢]. ويبدو أن هذا الكتاب اعتمد عليه الهجويرى فى ترجمته للأئمة والشيوخ الأوائل[٣].. وهذا الكتاب لايزال مصيره مجهولا، ولعل الوصول إليه يكشف عن معلومات ذات أهمية.. وهناك كتاب آخر لازال مفقودا وقد ذكره الحكيم فى رسالته «جواب كتاب من الرى» عنوانه: «سيرة الأولياء»[٤].

وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الحكيم أسس مدرسة صوفية تقوم على نشر

---

(١) الحكيم الترمذى «رسائل الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور الجيوشى ص٤٨، منبر الإسلام ع٨، ص٤٠.

(٢) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص ٢٤٣ ،ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) دكتورة اسعاد «كشف المحجوب» المقدمة جـ١، ص١٤٥.

(٤) الحكيم الترمذى «جواب كتاب من الرى» ٤٧، منبر الإسلام ع٨، ص٤٠.

الكتب والرسائل، وأن المقربين إليه من تلامذته ساروا على نفس المنهج[١].. وهذا يعنى أن هذه المدرسة لاتعتمد على الشيوخ، ولاتهتم بالمريدين.. فإن كتب التراث الإسلامى أفادت أن هناك طريقة باسم «الطريقة الحكيمية» تنسب إلى أبى عبد الله ابن على الحكيم الترمذى[٢] ويقول الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب» تحت عنوان «الحكيمية»: «أما الحكيميون فينتمون إلى الحكيم الترمذى»[٣].. وهذا يوضح للباحث أن الحكيم كان شيخ طريقة، وللطريقة مريدون، ويقال للمريدين: «الحكيميون» ويضاف إلى كل هذا أن كتب الطبقات وتراجم الرجال أفادت أن مريدى الحكيم الترمذى، أصبحوا شيوخا، لهم مريدون[٤].

وقد وجدنا فى رسالة للحكيم الترمذى، يجيب فيها عن أحد الأسئلة الواردة إليه عن كيفية السلوك. فيقول :«لاتدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك وقوتك من سلطان الوهم، فإن كان الوهم حاكما عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على شيخ، مميز، عارف»[٥]..

ولا شك أن كلام الحكيم الترمذى فى هذه القضية يعد عند الباحثين وأهل المعرفة دليلا على اتخاذ الشيخ حيث كان الناس يفهمون أن مدرسة الحكيم تعتمد على بث أفكارها عن طريق الرسائل ونشر المعرفة، دون الاهتمام بالشيوخ فى تربية المريدين فجاءت هذه الرسالة من الحكيم لتضعنا أمام حقائق مفيدة فى الطريق.

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص١٥.

(٢) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص١٣٦.

(٣) الهجويرى «كشف المحجوب»جـ٢، ص٤٤٢.

(٤) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص٣٥٤، ٣٥٩.

(٥) الحكيم الترمذى «كيفية السلوك» مخطوط ورقة رقم ١٤٧، مجموع ٣٥٣، خزانة تطوان «شمال المغرب»..